جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد") الفصل التاسع "المعادى"

نشرة "الإنسان 2018/08/06
السنةالحادية عشرة - العدد: 3992

بروفيسور يحيــــى الرخــــاوي – الطب النفسي، مصر
yehiatrakhawy@hotmail.com

قبل المقدمة : من بريد الجمعة 27-7-2018

أكرر أنه يبدو أن نشر هذه الرواية مسلسلة هكذا، خاصة الجزء الثالث "ملحمة الرحيل والعوْد" فى هذه النشرات اليومية هو ضد التلقى الأشمل، وربما كانت هذه الورطة هى السبب فى تراجع التعقيبات فى بريد الجمعة.

وددت لو توقفت، لكن ما باليد حيلة بقى هذا الأسبوع والأسبوع التالى، فلتتقبلوا عذرى مجددا

وعموما فالرواية بأكملها متاحة إلكترونيا وورقيا لمن شاء(1)

هانت!! باقى أسبوعين يعنى ستة فصول تقريبا.

وهذا هو الفصل التاسع

" المعادى"

ـ1ـ

لو أنهم وقعوا البيان باسم أصدق لما أثاره هكذا، إن الذى أثار حفيظته، بل شكوكه هو حكاية "أقباط مصر"، مالهم هم فى المهجر بأقباط مصر؟ إيش عرفهم بأقباط مصر؟ حتى لو تصوروا أنهم كانوا منهم يوما، أقباط مصر ــ الذين يعرفهم ــ لا يــهاجرون، ولايكرهون،، ليسوا مسيحيين ولا نصارى ولا حتى من أهل الكتاب، القبطى قبطى "ابن عم" "أخ" "خال"، "وِلْد" خال". أما المسيحى فهو مسيحى، المسيحى تجده فى كندا، فى استراليا، فى ألمانيا فى مصر: من أصل شامى، أو هو حضر إلى مصر حديثا، ولم تتح له فرصة أن يُشهر قبطيته بعد، القبطى يظل قبطيا حتى لو أسلم، ثم إنه لا يحتاج إلى أن يُسلم؛ ما دام قبطيا.، "ماهذا التخريف"؟، "انتَ مالك"؟، هذه الفكرة ربما تفسر موقف فاتيما أم العيال، باكورة مشروعه، يبدو أن فاتيما حين تزوجت أمين عبد الحكيم، وحضرت إلى مصر، يبدو أنها تــقَــبـَّــطْــنَــتْ حين أسلمت، لو كان محمود عبد السلام يعرف هذا التخريف لما فوجئ وهو يتعرف على جيران فدادينه الستة من القبطيات المحجبات، قبطيات الصعيد ــ يا محمود ــ فلاحات، محتشمات يا أخى"، "حجاب فاتيما شئ آخر"، "حجاب فاتيما ليس له علاقة بإسلامها ولا بقبطية فلاحات جــرزة، إن له علاقة بتجليات جمال الكون فى جمال البشر".

"طيب: كيف؟".

"أنا إيش عرفنى؟.

رن جرس الباب، نحَّى الصحيفة التى بها البيان جانبا، وخفق قلبه؛ لأن الجرس رن، هو لم يتخلص بعد من إشراقة البحر فى وجه فاتيما الذى يطل عليه من خلف السحاب الحانى المبرقش، أعطى الزبال

كيس القمامة الأسود الذى لا يحتوى سوى عدد من الأوراق المطبقة كيفما اتفق، وقبل أن يعود إلى الصحيفة رن الجرس ثانية فراح يفتح وهو مطمئن هذه المرة إلى أنها رنات الصباح الروتينية المتلاحقة، فإذا به أمام محمود عبد السلام شخصيا، ياليته تذكر حاجة حلوة. ابتسم، تذكر أن الحرارة مقطوعة من تليفونه، لعل محمودا حاول الاتصال به وفشل. ها هو أمامه.

فوجئ، وفرح، ورحب، وخاف، واكتشف أنه يحبه، نفس طعم الحب الذى يحب به أخته ثريا، سبحان الله. هل الوراثة يمكن أن تحدد حتى نوع الحب الذى تستثيره؟

ــ أطلبك من يومين وتليفونك ميت، حتى ثريا لم تتمكن من العثور عليك.

ــ خيرا،ادخل يا رجل، استرح.

ــ أخيرا، قبلوا الاستقالة بصورة نهائية تصور، جئت لأرى كيف تستقبل الخبر، لم يعجبنى صوتك فى الهاتف.

كاد يقول له: "وأنا مالى". لم يستطع أن يقول له: "مبروك "، فلا هو قال هذا، ولا ذاك، إنما قال:

ــ أخيرا؟

ــ أخيرا.

ــ وما هى المـــــُدة المسموحة لك لترجع عنها؟

ــ أرجع عن ماذا يا جلال ؟

ــ عن الاستقالة.

– ما الذى جرى لك، أنا ما صدقت؟

ــ ربنا يجعله خيرا.

ــ إن شاء الله.

كيف يمكن أن يشاء الله أن يجعله خيرا؟ هذه هى المسألة، كان عمه سليمان، أبوه الجميل، له دلال خاص على الله، يأخذ كل مقلب ومقلب، ودلاله على الله يزيد ولا ينقص، وكان جلال يسأله ــ طفلا ــ عن ثقته هذه فيطمئنه أنه راض عن الله، فلا بد أن الله راض عنه، طيب بالذمة يا عمى كيف أرضى أنا عن الله؟ أرضى بقضائه؟ أرضى بالرزق الذى كتبه لى؟ حاضر، لكن أن أرضى عنه هو؟! صعب علىّ يا عمى، طيب يا محمود يابن عبد السلام كيف يشاء الله هكذا أن تخرب بيتك مع سبق الإصرار والترصد، ثم تصدق أن ربنا سيجعله خيرا؟ كيف يمكن أن يكون خيرا هذا؟ وكيف يشاء الله مثل ذلك؟

التفت إلى محمود ليقولها بصوته المعلن هذه المرة، قالها بكل سخف يمكن أن يوصل له استياءه، وكأن الحديث لم ينته بالتسليم للمشيئة.

ــ طيب أنت استقلت، وأنا مالى؟

ــ مالك يعنى إيه، أخبرك يا أخى.

ــ ما هو المطلوب منى؟

ــ تبارك لى؟.

ــ حاضر. ألف مبروك، والعقبى للاستقالة الكبرى.

ــ من الحياة؟ تعنى؟

ــ إفهمها كما تشاء، ولكنها ستكون أهون مما فعلت على كل حال.

ــ2ــ

لماذا حضرته صورة غالى جوهر بجوار بيان "رابطة أقباط مصر فى المهجر"؟ هو لا ينسى فضل هذا الرجل على فكره فى صدر شبابه، أهدى له مفاتيح التفكير السليم،... ثم ماذا؟ ثم يبدو أنه تراجع وتركه، تركهم، فريسة للتفكير السليم، ثم راح هو يكتب فى النقد الأدبى، ويؤرخ للتفرقة العنصرية فى تيمورالشرقية وجنوب السودان، أستاذه يستعمل التفكير السليم استعمالا انتقائيا تكيفيا، مع أنه كان

يعلـــِّمه أنه إما أن يكون التفكير سليما ومنطقيا وماديا وعقلانيا طول الوقت، وإما أنه لا لزوم له أصلا، ماذا حدث؟ هل وجد نسخة معدلة للتفكير السليم سمحت له أن يتنقل كل هذه النقلات الناعمة. لاشك أن الأستاذ غالى جوهر حر فيما اختاره ليكمل به حياته، عمره ما كان متعصبا، أو على الأقل عمره ما فشل فى إخفاء تعصبه عن نفسه أولا، هو ليست له علاقة ببيان أقباط المهجر، فلماذا قفزت صورته بالذات إلى خيال جلال؟ صحيح أنه علم مؤخرا أن زوجته وأولاده ــ فيما عدا جوهرا ــ هم من أبناء المهجر، لكن هل لمجرد أنهم هاجروا فهم مسؤولون عن هذا البيان؟ وهب أنهم من أول الموقعين عليه، فهل الأستاذ مسؤول عن توقيعات زوجته وأولاده المهاجرين؟ يبدو أن إصدار البيانات هكذا تتصدر حقوق الإنسان المهاجر.

من حق هذا المعتوه الذى اسمه محمود عبد السلام أن يصدر بيانا من جـــِرزة يدافع فيه عن حقوق المهاجرين إلى جرزة، حتى لو كانوا واحدا، ولا مانع أن يرفع الأمر إلى المنظمة،

"والله يا محمود أنا لا أعرف ضد ماذا؟ أو ضد من أنت ثائر؟".

ثار أهلنا ضد الإقطاع، ثم ضد أعوان الاستعمار، ثم ضد الإمبريالية، ثم ثرنا نحن ضد أنفسنا، لكن أنت؟ ما هذا الهباب الذى تعمله هناك، ثم تأتى وتقول لى قد أحتاجك لتساعدنى فى التدريس للأولاد؟ وأين؟ فى جرزة؟ طيب يا أخى ألا تنتظر حتى تمشى الحال معى هنا فى أى مكان مع ناس يستأهلون، ثم نرى مسألة أبناء جرزة المستوطنين هؤلاء.

ــ هم بمثابة أولادك يا جلال، أنا أعرف حبك للأولاد، كل الأولاد.

ــ نعم..، نعم، ولكن بالأصول، فى المكان المناسب، وبالمنهج المناسب.

ــ أتساءل كيف يمكن أن يتموا دراستهم فى هذا المكان؟

– يا أخى، إفرض أنهم ولدوا هناك.

ــ لا يا شيخ؟ ! تستعبط حضرتك، لهذا جئت إلىّ يا محمود، أنت عزيز على، وأنا تحت أمرك. لكنك تـــُدخلنى فى أشياء تبدو لى غير مرتبطة ببعضها، المفاجأة تلو المفاجأة، ثم أختك يا أخى، ثريا، أليس الأولى أن تسألها هى، وهى المدرسة فى مدرسة رسمية، وتعرف المناهج والمقررات وربما المدارس القريبة من منتجعك الجديد؟

ــ هذا بالضبط هو ما جعلنى لا أسألها، وأحضر لك.

ــ ما هذا الذى هو بالضبط، الله يسامحك؟

راح محمود يشرح لجلال كيف أنه يبحث عن بديل حقيقى، عن تعليم لا عن تحفيظ، عن علامات تدل على اطراد نمو معارف أولاده، لا عن غـــش ينقلهم من صف إلى صف، وأن هذا هو الذى دعاه إلى التفكير الجاد فى الاستعانة به سعيا فـالاستكفاء الذاتى.

ــ استكفاء ماذا؟ لم تقل لى شيئا عن هذا الاستكفاء، كل ما حدثتنى عنه هو الاستقالة، والزراعة التى لا تعرف فيها الأذرة من الباذنجان، ثم كلام عن الغش، والجنون.

ــ أنا حدثتك عن الجنون؟

ــ وهل لابد أن تحدثنى، أفعالك هذه ماذا تسميها؟

ــ ألم تحدثنى أنت دون دعوة منى عن مشروعك للتدريس للأطفال، لماذا لا تأخذنى مأخذ الجد مثلما تفعل مع غيرى؟ أليس أطفالى هؤلاء ضمن أطفال العالم الذين سوف تغيرهم مشروعاتك؟

نفى جلال أنه حدث محمودا عن أطفال العالم، أو عن تغيير العالم، ونبهه إلى أن هذا الكلام أصبح قديما، ومضحكا، وأن المسألة كلها انتهت إلى أن تكون وسيلة أشرف لأكل العيش، باستثمار مهاراته الخاصة فى اللغات والكمبيوتر لصالح الأصغر الأقدر على استيعاب حركة التطور.

ــ حركة ماذا؟ تضحك على نفسك، ماعلاقة أكل العيش بحركة التطور؟

ــ علاقة أوثق مما تتصور.

راح محمود بدوره يقنعه ألا يتمادى فى خداع نفسه، وأن مشروعه هذا تكمن وراءه رغبة فى تغيير

العالم أساسا، وأن زلة اللسان هذه بذكر "التطور" وهو يحاول أن يجعل المسألة واقعية وأكل عيش، إنما تدل على مقصده الأعمق، وأنه ما دام الأمر كذلك، فإنه الشخص المناسب الذى يمكن أن يساعده فى تنشئة أولاده فى هذه التجربة، فقد يتمكنان من أن يحققا كيف يتعلم الأطفال ما ينبغى، لا ما يضيعهم وينفيهم، يعلمانهم ما لا يكون الإنسان إنسانا إلا به، وتمادى محمود فى كلام كبير من هذا.

ــ اسمع يا محمود، لا تزد من انشغالى عليك، ولا تشركنى فى هذه الجريمة.

ــ هذه الـــ "ماذا"؟ تقول الجريمة؟ مرة تسميها جنونا، والآن تسميها جريمة، تتخلى ــ إذن ــ عن شخص هو أقرب الناس إلىعن مشروعك، عن الوقوف بجانبى، وبجانب أطفالى،... (سكت فجأة).

ــ اسمع: أنا تحت أمرك، فى حدود ما أعرف، وما أنوى، وما أقدر، لا أكثر ولا أقل.

ــ اتفقنا.

ــ ليس تماما.

ــ3ــ

هو لا يعرف لماذا يصر أن يطمئن على أن أستاذه غالى جوهر ليست له علاقة بهذا البيان الصادر عن غير ذى صفة، هو يتابع بتسليم عاقل ما طرأ على أستاذه من تحولات ظاهرة ومعلنة، هذا أمر لا يخفى على أحد، لكنه كان دائما، أوغالبا، يتصور أن هذا الذى طرأ على أستاذه هو للاستعمال الظاهرى فحسب، أما أستاذه، فهو أستاذه لا يمكن أن يتغير،هو خال الدكتورة مادلين!! خالها خالها، ما لها هى؟ وماله هو؟ عنده عنوانه على ظهر بطاقة الصيدلية، ولابد أنه رجع من كندا بعد زيارته لأولاده. فليذهب إليه مباشرة.

دخل جلال وهو يشكر الأستاذ غالى الذى فتح له بنفسه، يشكره على ما يتيحه لمثله من فرصة لقائه هكذا دون تلكؤ، وما هو إلا أحد المعجبين بدوره، الأستاذ هو الأستاذ، كان كذلك، وسيظل كذلك.

ــ يا رجل !! يا رجل !!، واحدة واحدة، أشكرك على حسن ظنك، ولكن...

قاطعه جلال:

ــ لا تتواضع يا أستاذنا.

ــ ... تواضع ماذا يا أستاذ جلال، أنتم الجيل الواعد الآن.

ــ جيلنا جيل هش، لكن أنتم، شئ آخر؟ أنتم جيل لا ينكسر.

تردد الأستاذ قليلا، حاول أن يخفف من غلواء زائره، راح يتحدث عن الظروف، والواقع والعقل، وكيف أنه "لابد" ..، و"بما أن"، قاطعه جلال.

ــ على الرغم مما أقرأ لك أحيانا مما أنكر، لكنى أقول لنفسى إن لكل مقام مقالا، وأن كل وقت وله أذان، وكلام من هذا، أقوله وأنا غير مقتنع، مازلت حتى الآن أرجح احتفاظكم بأفكاركم وثوريتكم وطموحاتكم للوقت المناسب.

ــ يبدو يا جلال أن هذا الوقت المناسب لن يأتى أبدا،.، هل ما زال أحد يستعمل هذه الألفاظ التراثية؟

ــ تراثية؟

راح الأستاذ غالى مرة يبدى التواضع، ومرة يدعى التواضع، ثم إنه راح يشرح له كيف أن اشتغاله بالنقد الأدبى بدا له فى أول الأمر حلا جيدا يبعده عن اللحظة الراهنة على أرض الواقع، لكنه لا يحرمه من استمرار التنفيث عن موقفه النقدى المتحفز، إلا أنه اكتشف أنه يكتب نقدا سياسيا لا نقدا أدبيا، وأنه صار مرفوضا من النقاد ومن السياسيين على حد سواء، فاكتفى بكتابة المقال المتوازن بتعقل شديد، حتى أنه ــشخصياــ يصاب بالغثيان حين يقرأ ما كتبه منشورا، حين يكتشف مدى التمادى فى جرعات التعقل التوازنية، وقد قرر ــ لهذا ــ أن يكتفى بكتابة المقال المتوازن دون قراءته.

ــ أصارحك يا أستاذ ولا تعتب على، أنا ــ أيضا ــ كففت عن القراءة لك، آسف، لكننى كنت حريصا على ألا تتغير صورتك، كنت أشعر بالخجل من ذلك، لكننى اطمأننت الآن إلى أنك ــ أيضا ــ لست

من قرائك.

ــ كل مرة أتصور أننى سأتجاوز هذه الحكمة الماسخة، ثم أكتشف أنى لا أفعل شيئا إلا محاولة إرضاء جميع الأطراف، ألا قل لى يا أستاذ جلال: هل يمكن إرضاء جميع الأطراف؟

ــ أظنه يمكنك يا أستاذ، الأمر يحتاج إلى حكمة خبير.

ــ كنت أتصور أننى أجمع الأطراف إلى بعضها البعض، ثم اكتشفت أن المسألة ليست هكذا، المسألة ليست لها أطراف.

قال جلال متشجعا:

ــ نحن ــ أيضا ــ لاحظنا أنها ليست هكذا.

ــ ماذا لاحظتم بالضبط؟

ــ الغثيان،... يعنى...أقصد..لا..............

ــ ماذا؟

فوجئ جلال وتذكر أن تبسط الأستاذ فى الحكى لا يعنى أنه يسمح له بمثل ذلك

ــ أقصد أن المسألة يعنى، حضرتك الذى...، حضرتك الذى قلت "غثيان".

ــ أنا قلت "غثيان" يا جلال؟

ــ أظن أننى سمعت ذلك، أو فهمت ذلك وأنت تصف قراءتك لمقالاتك المتوازنة.

ــ ربما، لا، ربما، لا. ثم ماذا هو؟ يعنى موقفكم؟ ماذا تعملون؟ ماذا تنتظر أنت؟ أين تذهب؟

حاول جلال إزالة الحرج باستظراف يعرف أنه سخيف، رنت فى عقله حين سمع تساؤله "أين تذهبون" فكاد يقول: "هذا المساء"، لكنه منع نفسه، وتمادى فى سرحان شبه مقصود أكده بغمغمة استعباط متهــرب.

ــ لم ترد على تساؤلاتى يا أستاذ جلال؟ ماذا تنتظر؟ أين تذهب؟

ــ وهل حضرتك تحتاج إلى رد مثلى، أنت أعلم بما آلت إليه حالنا.

تذكر جلال فجأة البيان الذى دعاه إلى تحديد هذا الموعد، ولكنه خجل أن يفاتحه فيه، بعد أن تطور الحديث هكذا بعيدا عنه، ثم أفاق مرة أخرى على صوت الأستاذ.

ــ يا خبر، أَنــْـــســـَـــتـــْــــنى حرارة حماستك أن أقدم لك شيئا، بهية... يا بهية.

دخلت من ناحية المطبخ، فتاة حول العشرين، شديدة الجمال، ما الحكاية؟ همس جلال لنفسه، كلهن شديدات الجمال، كل واحدة شديدة الجمال، لا توجد واحدة نصف نصف؟ لكن جمال بهية هذه (حفظ اسمها فى ثانية) جمال طازج دافئ، جمال بهية هذه مسلم الهوية، الله يخرب بيته، ماذا جرى فى عقله هذه الأيام؟ لماذا يصنف الجمال، والفكر، والعواطف وأشياء كثيرة أخرى تصنيفا دينيا بشكل جديد غبى هكذا؟! هو نفسه يستغرب هذه اللغة الجديدة عليه، متى يكون الجمال مسلما؟ ومتى يكون مسيحيا؟ ومتى يكون بوذيا؟ ومتى يكون كافرا؟ الجمال ينتمى إلى من يحب الجمال، ما هذا الذى اعتراه هذه الأيام؟ تصنيف تصنيف تصنيف؟ حتى الجمال؟! حاول أن ينظر فى باطن رسغها الأيمن أو الأيسر ــ مثلما فعل فى الصيدلية مع الدكتورة مادلين ــ لكنه خجل من نفسه، المنديل ذو"الأوية"، والنضارة السمراء، والجسم الملفوف، والدلال البيتى، لا يمكن أن تكون بهية شغالة؟

سأله الأستاذ جوهر ماذا يشرب؟ يبدو أن جلالا قد نسى أو تناسى أنه كان على وشك الانصراف، فطلب شايا بدون سكر؟ لماذا بدون سكر، لا يعرف، وفى انتظار الشاى، مع انصراف بهية تاركة وراءها مشاعر متسائلة شهية، وإجابات مثيرة لذيذة، وفروضا عبقة نفاذة، حاول أن يتذكر المهمة الأولى التى جاء من أجلها وهى التى يمكن أن تمسح كل ذلك، فتجرأ وسأل الأستاذ عن موقفه من حركة أقباط المهجر، واستغرب أنه لا يوافق، ولا يرفض، يا خبر!!، إذن كان عند جلال حق، حين قفزت صورة غالى جوهر إلى ذهنه مع البيان، كان يخشى أن ينحرف الحديث إلى هجرة أولاده، ولكن جلالا لم يجرؤ على أن يعلن عما خطر له من ربط بين موقف الأستاذ هذا بمشروع رهبنة ابنه

جوهر، فما بالك لو كان قد تجرأ على السؤال عن دور "بهية" فى حياة الأستاذ؟ تمنى أن تأتى بالشاى بسرعة حتى لا يتطور الحوار إلى مالا ينبغى أو ما لا يحب، لكن بهية تأخرت، ولم يستطع جلال أن يطرد حوارا بداخله:

= "لأنها تريدنى أن أبقى أكثر".

= "لا ياشيخ"!!؟.

="أنت مالك انت".

اضطر ــ دفعا لكل هذا ــ أن يسأل الأستاذ عن مشاريعه المستقبلية.

ــ مشاريعى أنا؟ المستقبلية؟ هل تعرف كم عمرى؟

ــ ... تعلمنا منك أن مسألة العمر مسألة فى أيدينا نحن، نحن الذين نقررها.

ــ أنا علمتكم هذا؟

ــ طبعا حضرتك.

ــ....، على أية حال، ليست لى مشاريع، وليست لى مستقبل!!.

خطر على بال جلال أن يستفسر منه عن تطور موقفه من الدين، وهل يسرى عليه ما يسرى على الأصغر مثله؟ وماذا يفعل به الخوف من النهاية مع تقدم السن؟ يريد أن يسأله عما صارت إليه أيديولوجيتهم وشعاراتهم، بل عن بهية بالمرة، فضل جلال أن يبدأ من الآخر، فسأله فعلا عن بهية، ليس يدرى كيف احتال ليسأله. لكنه سأله، الأمر العجيب أن الاستاذ لم يدهش للسؤال، ولم يحاول أن يتهرب، ولا هو أجاب إجابة لم يفهمها جلال بسهولة قال:

–هى مكافحة طيبة ، ليست شغالة، وليست قريبة، وليست سكرتيرة، لكنها، والحق يقال، أهم ما تبقى لى فى هذه الدنيا.

كاد جلال يقول، ولكنها مسلمة، وانتبه إلى أنه "إيش عرفه"؟

هذا الأستاذ الجليل، الذى أصبح حكيما بلا لون، ولا طعم، على الرغم من الرائحة الفاترة اللزجة اللحوح، هذا الأستاذ قد قرر أن يتخلص من الصراع بين رهبنة ابنه وهجرة بقية الأسرة بأن..

بأن..يساعد الطبقة الكادحة بهذه الطريقة، وبسرعة حاول جلال أن يغير الموضوع:

ــ هل تسمح لى حضرتك بسؤال شخصى؟

ــ وهل تكلمنا حتى الآن فى أى شئ غير شخصى؟

ــ أعترف أننى لم أعد قادرا على التمييز بين ما هو شخصى، وما هو غير شخصى.

فجأة أشرقت فى رأس جلال فكرة جعلته يتمادى ليكمل:

ــ ياترى هل وصلت بعد هذه النقلة إلى ما يشير إلى، ..إلى عكس ما كنا....؟

ــ أى عكس تعنى؟

–عكس رأى اليسار فى الدين والإيمان مثلا؟

راح الأستاذ غالى يروغ من الرد المباشر، حتى صرح أنه يبدو أن الدين ليس هو الذى يخدر الشعوب، لكن رجال الدين هم الذين يسرقون وعى الشعوب لصالح أسيادهم.

ــ هذا كلام قديم، آسف، أنا لا أعنى هذا تماما هكذا، ولكنى أعنى ..، ما لم أستطع..، أقصد..، يعنى، ربما . "الله" يعنى.

ــ ما له؟ "الــله" ماله؟

ــ هل وجدتــَه، حضرتك؟

ــ أين؟

ــ لا أقصد.

ــ جوهر ابنى ذهب يبحث عنه فى الصحراء الغربية، وذهبت أمه ومعها إخوته إلى كندا حيث يبدو أنهم وجدوا منه صورة حديثة مع هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يتخلصوا من مصر داخلهم فيحقدون

عليها، يساعدهم فى ذلك ربٌ خواجه سابق التجهيز هناك.

ــ حضرتك إذن تعتبر بيان أقباط المهجر خطأ؟

لم يرد الأستاذ جوهر، وكأنه تورط فى التصريح بما لا يقصد، فراح يبدى تعجبه من أسئلة جلال، وينصحه أن الحياة مليئة بمشاكل أهم من هذه المناقشات المضيعة للوقت، وأنه يقدر نزوع الناس هذه الأيام إلى الخوض فى هذه المسائل؛ إذْ كلما ضاقت الدنيا، واختل المنطق، لاحت الدروشة فى الأفق، وأطلت الخرافة تعرض خدماتها.

لم يكمل جلال التصريح بما دار فى ذهنه واستأذن بسرعة بعد أن نظر فى ساعته، وتعجب الأستاذ جوهر لتأخر الشاى، وهَّم أن ينادى بهية، لكن جلالا حسم الموقف معلنا فى إصرار أن موعدا يستحيل تأجيله قد أزف، وأنه آسف على ضرورة انصرافه الآن، كما أنه شاكر جدا على الوقت الذى قضاه معه.

-4-

شعر جلال بالغثيان مع وهو يخرج، وحتى لا يتطور الأمر، راح يطلق لخياله العنان وهو يسير فى الشارع كأنه لا يرى، جاءه حدْسٌ غريبٌ أثناء سيره، شعر بأن أحدا يتتبعه، يريد أن ينشله، أحكم أزرار سترته، شعر أن هذا الذى يتبعه هو بداخله، إذن فهو لم يجن، وراح هذا الذى يتبعه يتجسد أكثر فإذا به "خواجة" ابن خواجاية، ومع ذلك هو يخرج له لسانه ويهتف: "بهتاف لم يستطع جلال أن يسمعه جيدا،، ولم يعرف هل هو يسخر منه أم يرجو إسهامه؟ هو يعلم أن بعض الأمريكيين يعرضون حلولا لتغيير برامج حياتهم، ليس كل الأمريكيين أمريكيون، هل ثم مجال للتعاون معهم، ألا يمكن أن يكون مشروعه قريبا لما يفكر فيه مبدعوهم، حاول أن يتأكد أنها مجرد أفكار، لكن المتابعة تجسدت فى خيالات أكثر تحديدا، وأصبح المتابــِع أكثر من واحد، أصبحوا صبية كثيرون، خواجات أيضا، وفيهم سودٌ كــُثر، ربما قدموا من أمريكا الجنوبية أو هو غزو من أفريقيا، لم يلتفت، بدأوا يهمسون بما لم يتبينه، أخذت الأصوات تعلو وهو يسرع الخطى، "العبيط اهه، أهه، العبيط أهه"، تحددت هويتهم فهم ليسوا مجرد خواجات، هم أمريكيون آخرون من جماعة النظام العالمى إياه الذى يريد أن يتجنس العالم بالجنسية الأمريكية دون أن يحمل جواز سفر أمريكى، فلا يعود هناك أحد أحسن من أحد ، سوف يختزل تصنيف الناس إلى نوعين لا أكثر: أمريكى أصلى وأمريكى مضروب" " طيب والصين؟" "آه صحيح، والصين؟"،.... ثم اختفت الأصوات كلها فجأة على صوت كابح سيارة توقفت قبل أن تصدمه بعدة سنتميترات، أفاق جلال تماما كأنه سقط من شاهق أو أفاق من غفلة، واستردَّ وعيه كاملا وهو يسمع التقريع والسباب من قائد السيارة، ومن السيارات المجاورة، وحتى من بعض المارة الذين شاركوا فى لعنه هو وأهله وربما دينه أيضا، ولعل أحدهم بصق عليه فعلا؟ وإلا، فمن أين هذا الرذاذ ؟ لعله العرق، جفف العرق وتعجب لسهولة الدخول إلى دنيا الخيال بهذه الصورة، وتأكد أنه مخطئ مائة فى المائة، ولم يحدِّد "فى ماذا"،

وندِمَ على محاولة العبور.

ــ 5 ــ

ــ نتفاهم،.، ماذا تريدين بالضبط؟

كانت هى التى دعته إلى لقاء خارج المنزل فى هذا المطعم الصينى على أطراف المعادى، واشترطت أن يكون العشاء ضمن اتفاق العمل حتى تبرر أنها هى التى ستدفع، لم يتمنع كثيرا، ولم يوافق بسهولة، ربما هو بدأ يتعلم لغة أصول اتفاقات العمل، وهو غير واثق إن كان الذى جعله يقبل الدعوة من فوره هو احتمال أن تكون بداية مهمته قد قربت، حتى لو كانت بداية هى النهاية ذاتها، فيرتاح، ويريح؟ أم أنه كان يريد أن يجلس معها هى بمفردها بعيدا عن المنزل هكذا؟ زوجها يعرف، يعنى، ويرحِّب غالبا، وهو يشكرهما أنهما أعفياه من التفاصيل، حيث كل ما عليه هو أن يدفع التكاليف المطلوبة منه دائما ومن فوره، ثم إنه لا يهمه إلا أن يرى النتائج فى تفوق أولاده وتميزهم.

هذا موجز ما أبلغته فاتيما لجلال بعد جلوسهما فى المطعم الذى من ضمن ميزاته ــ كما قالت هى من سابق خبرتها – أن خدمته بطيئة؛ مما يجعل اللقاء حول المائدة أهم من التهام ما يوضع عليها، ردت على سؤاله المستوضح عن موقفها هى من مشروعه بعيدا عن موقف أبى الأولاد.

ــ أنت تعلم، فى الأغلب، ما أريده أو قل ما أتمناه.

ــ أحسب أننا ألمحنا فى اللقاءات السابقة إلى الخطوط العريضة، وقد آن الأوان أن نحاول الدخول فى التفاصيل.

ــ تعنى المواعيد، والساعات، وتوفيق ذلك مع ارتباطات الأولاد؟ أم ماذا؟

يحاول هو طول الوقت أن يمسك نفسه حتى لا يخترق المائدة، هذه "ليست خوجاية" والمصحف، ليست بعيدة، ليست باردة، ليست عنصرية، ليست متكبرة، ليست متحذلقة، ليست مهذبة جدا، ليست هشة.

= "ومن قال إن الخواجايات هن كذلك؟

= أنا"

="و"إيش عرفك؟"

="يتهيأ لى"

" ="طيب يا فالح".

أعاد نفسه بالقوة إلى موضعه الذى لم يتحرك منه أصلا، وقال:

ــ لا أقصد ذلك، ولكن أقصد الأهداف، أهداف المهمة.

ــ ألستَ أنت صاحب العرض، أليست صديقتنا المشتركة "منال" هى التى عرفتك على أمين بناء على طلبك تلاميذ لمشروعك؟ إنك تعرف أهدافك بكل وضوح، هذاما بدا لى من أول وهلة.

ــ لا أخفى عليك، ليس تماما، أنا أعرف أهدافى وأنا جالس فى بيتى، أما عند التنفيذ وإشراك آخرين، واحتمال البدء فى العمل مع أطفال الناس، فلابد من التحديد. ثم ماذا لو كانت أهدافك، أهدافكم، غير أهدافى. لابد من التوفيق بين وجهات النظر، منذ البداية، وإذا لم ننجح فى التوفيق. فلا مفر من العدول عن المشروع قبل البداية.

ــ بصراحة يا جلال، يخيل إلى أحيانا أنك تتمنى أن تفشل قبل أن تبدأ.

ــ كيف عرفتِ؟

ــ قلت لك يخيل إلى.

ــ أنا أيضا يخيل إلى ذلك، أحيانا أيضا.

ــ بل دائما.

ــ... دائما، يا خبر، فهى مخاطرة حقيقية، فلماذا إذن ...

ــ .. أنتَ غريب يا جلال، وأنا أحب غرابتك هذه.

كاد يقول لها، مثلما قالت، وأكثر، لكنه عدل، وادعى لنفسه أنه ليس متأكدا، إن كان يحبها هى أم يحب غرابتها؟ حتى هذه اللحظة لم يكن قد حسم أمره بشأن مشاعره نحوها، هو ليس من السفالة بحيث يستغل فرصة دخوله منزل رجل ائتمنه، ثم يلعب بذيله، ثم إنه ليس من البلادة بحيث يستطيع أن يكتم مشاعره عن نفسه، ما هذا؟ تذكر أنه اكتشف أنه أصبح" جاهزا مع وقف التنفيذ"؟ هو يشعر بذلك مع كل واحدة يلقاها، دون استثناء بهية، لكن مشاعره الآن مختلفة، هى ــ دائما ــ مختلفة مع كل واحدة، مشاعره تتجلى على مزاجها بتشكيلات مبرمجة تناسب كل واحدة بحسب موقعها شديد الخصوصية بين خلايا حضوره الجسدى المعنوى الإيمانى المبتكر، يا ليلة لن تمر!!!. أين تذهب به هذه اللغة؟

طال صمته فقطعته:

ــ ماذا قلت؟

ــ فيم؟ أنا لم أقل شيئا.

ــ ما رأيك؟ نبدأ من فورنا ونرى، المهم الآن هو العمل، وهو سيوصلنا إلى الهدف.

ــ لا لا لا، عندك. هذه لعبة أمريكية لابد من حبك "الغمى" على عيون الثور حتى لا يكف عن الدوران.

ــ ماذا؟ أمريكية؟

ــ هى جاءت هكذا، وأنتِ؟

ــ أنا ماذا؟

ــ ألا ترين ذلك؟

ــ أنا هاربة من كل ما هو أمريكى، لكن يبدو أنهم تحت جلدى.

ــ إذن نحاول أن نحدد مهمتنا، مهمتى، ولو بطريقة تقريبية، ما هو المطلوب منى؟.

– أنت الذى تجيب، أنا طلبت مقابلتك لتحديد الخطوات، لا الهدف؟.

– لكننا اتفقنا على الخطوات، لقد قلت لى فى الهاتف إن سبب اللقاء فى الخارج هو أن نأخذ راحتنا فى الحديث فى التفاصيل.

ــ آه صحيح، هذا ما قلته فعلا.

ــ إذن، هيا..

ــ هيا ماذا؟

ــ هيا إلى ما جئنا من أجله.

ــ كنت أريد أن أتعرف عليك أكثر، أتعرّف عليك عن قرب، أستاذ أولادى!.

كاد أن يصدق، وابتسم، ثم سارع بالرفض، هو ليس لعبة جديدة تعبث بها وهى تقلــّبها وتفكها وتفحص أجــزاءها، ثم تعيد تركيبها.

ــ تتعرفين على ماذا بالضبط؟

ــ عليك يا أخى، عليك. وأنت.....؟

أنا ماذا؟ هل أمارس أمامك "عجين الفلاحة" لم يظهر أثرهذا الاحتجاج على وجهه، أكملت هى لما لاحظت صمته وتغير قسمات وجهه:

ــ هل آذيت مشاعرك؟ ألا تريد أن تتعرف أنت علىّ..؟

بحلق فى وجهها ليتأكد أن الحجاب مازال فى موضعه، تعجب لربطه هذا بذاك.

ــ أريد جدا، أريد طبعا.

ــ هيا نتعرف.

يا ليلة لن تنقضى، هيا نتعرف. كيف؟ هنا؟ يبدو أن كلام الخواجات، حتى بالعربى، له معان أخرى، فى الأغلب. إن كان عليه فهذا المكان لا يسمح له بالتعرف، هو مطلــّق وبيته خال، لكن المسألة ليست كذلك، إنه لا يفهم ...، وهو لا يريد أن يفهم.

على الرغم مما غمره من كل شئ، قرر أن يهبط اضطراريا دون فتح المظلة، وليكن ما يكون.

ــ الأولاد فى منتهى الذكاء، عملت الهندسة الوراثية عملها.

قالها وضحك ليخفف من سخفه.

ــ تقصد التهجين، لا الهندسة الوراثية.

ــ كله محصل بعضه.

ــ يعنى؟

ــ لن توجد مشكلة فى سرعة تعلمهم، ولكن ماذا تنتظرين من جهدى بالضبط، ماذا تتوقعين من مشروعى؟

ــ... دعك من حكاية "بالضبط" هذه، إن كل ما أرجوه هو أن يكون فى إخلاصك وحماستك وقدراتك ما يسمح للأولاد أن يتعرفوا على أنفسهم، وعلى إيمانهم، وعلى جذورهم دون تمزق، هذه هى الحكاية.

ـــ فقط !!!؟ ؟

قالها فيما يشبه التنبيه الموقظ الذى لا يخلو من سخرية، ثم أردف:

ـــ أحسب أنى سمعت كلمة "إيمانهم"، ضمن ما تنتظرين منى أن أعرفهم به من خلال اللغة.

ـــ فعلا قلت ذلك.

ـــ ومن أين لى أن أعرف إيمانهم حتى يمكن أن يتعرفوا عليه؟

ـــ إيمانهم هو إيمان أى مخلوق خلقه الله، لقد خلقنا الله مؤمنين، أليس كذلك؟

ـــ أنت الأدرى.

ـــ وأنتَ؟

ـــ أصدقك.

ـــ ألم تكتشف أنت ذلك بنفسك؟

ـــ أكتشف ماذا؟

ـــ تكتشف إيمانك، كما خلقك الله.

ـــ ربما اكتشفته طفلا داخل عباءة عمى سليمان وهو يرتل القرآن، لكن المشايخ الرسميين سارعوا بالاستيلاء عليه، كان ينبغى أن أسجــِّل "حق الاكتشاف" فى وعيى غائرا قبل أن يسرقوه.

ـــ لا شئ مما نكتشفه أطفالا يمكن سرقته.

ـــ ربما، ولكن يمكن طمسه وتشويهه.

ـــ صحيح. يبدو أننا نكتشف الله أطفالا قبل أن يكون لنا حق تسجيل الاكتشافات.

ـــ وياليتهم يستولون على ما نكتشف ويريحوننا فنستسلم، لكنهم يخفونه لحساب عكسه، ويسجلون ما زيفوه بنفس الاسم حتى لا ننتبه إلى السرقة.

ـــ لست فاهمة؟

ـــ ولا أنا، أقصد يسمون "ما يشبه الدين" الذى يخفون به إيماننا، باسم "الدين."

ـــ هذا بالضبط ما أريدك أن تحمى الأولاد منه.

ـــ أنا؟ أحميهم؟ كنت حميت نفسى!!!. أحميهم بدروس اللغة؟

ـــ ليس تماما، ولكن اللغة، أنت الذى قلت لى ذلك، اللغة حين تحمل معناها تصبح وسيلة لتوصيل هذا اللحن الكونى المتناغم، فنحافظ على كوننا بشرا. هل رجعت فى كلامك.

ـــ أنا قلت ذلك؟

ـــ على ما أذكر.

ـــ كل ما أعرفه هو أن نبض الوجود لا ينبغى أن يسلم لأمناء المخازن، وهذا لا يتم إلا بالحرية واللغة ذات المعنى.

ـــ حرية ماذا؟ أنا هاربة من حرية ما، ألا يوجد لفظ آخر لوصف هذا الشئ الذى ندور حوله، فلا نحن نحققه، ولا هو يلحقه منا إلا التشويه، ألا تدور محاولاتك فى هذه المنطقة؟

) =سيدتى، إنك تمدين يدك إلى داخل داخلى، أنا لست ناقصا).

لم يشعر من قبل كيف يكون الكلام نابضا غائرا ممتلئا مثلما شعر فى تلك اللحظة، لم يكن ناقصا عليه إلا أن يمد يده فيمسك بكلماتها بكلتا يديه، بدت له الحياة الممتدة من هذه اللحظة إلى المطلق، متجسدة فى كلمات، حتى الكلمات العادية التى نتكلمها أصبحت كأنها الحياة ذاتها، هذه الكلمات فيها خليط من الجنس والحب والإيمان، النسب رائعة التمازج، لو استمرت هذه المرأة تفعل به ذلك فقد يصل إلى أن يرى الله جهرة، حضرتــــْـه ـــ من بعيد ـــ تلاوة عمه سليمان وهو قابع طفلا داخل عباءته دون استئذان، لم يتذكر آية بذاتها، لكنه امتلأ بصوت عمه سليمان، ....، لابد أن ينتهى هذا الموقف حالا، وإلا فهو غير مسؤول عما يحدث: قال لها قبل أن يتردد:

ـــ أحسب أننا تقاربنا بشكل لم أتوقعه، أتبين من خلالك أننى إنما أحاول أن أسترد ما ســـُرق منى

طفلا، هذا ما أسعى إليه من خلال مشروعى لحماية أطفالٍ لم تتم سرقتهم بعد.
ــ ربما يكون ذلك من أهم ما دفعنى للحضور إلى مصر، مصر التى...
قاطعها وكاد يقول "فى خاطرى وفى دمى".. شعر أنه يسخف الأمر كأنه يلقى بزجاجة حبر، كيفما اتفق، على لوحة تتكون، خاف وتراجع، ومنع نفسه، وقال مقاطعا أيضا:
ــ مصر التى تخلــّقينها تخليقا كما تخيلتِها.
ــ لا أظن. أنتم فعلتم فى مصر، مثلما يفعل المتدينون التقليديون بأطفالهم، يستولون على إيمانهم، ويستبدلونه، ثم يلصقون عليه اللافتات التى تنفر الأطفال والكبار وكافة المؤمنين والكفار منه، هكذا فعلتم بتاريخ وحضارة أجدادكم، أجدادنا..
ــ أجدادكم غير أجدادنا.
ــ ليس تماما، أجدادكم هم أجدادنا الحاضرون الآن فى خلايانا، كل ما فى الأمر أنهم تجلوا أكمل وأجمل فى فترات حضارة زاهرة عندكم، كانت حضارة هؤلاء المصريين من أهم ما سجل التاريخ لحسابكم، لكنه سجلها لنا جميعا نحن البشر.
ــ لست فاهما؟
ــ أحسن.
بدأت الحالة التى غمرته، الحالة التى لا يعرف لها اسما، بدأت تهدأ تدريجيا وهو يحاول أن يغض بصره مرة، و أن يركز فى الأفكار دون لحم الكلمات مرة، فتعاوده الطمأنينة، فيتمنى ألا ينتهى اللقاء أبدا، أو أن ينتهى حالا، فكر أن يساعد نفسه على العودة "كما كنت" بأن يذكر لها جانبا من حديثه الجاف مع غالى جوهر، أستاذه، أو الذى كان أستاذه.
ــ تصورى، بعد سرقة أهلنا لإيماننا، واستبداله بما أسموه دينا، كل حسب درجة جبنه، راح الفريق الآخر يعلمنا كبارا أن نتخلص من كل ذلك بزعم أن الدين مخدر للشعوب.
ــ كم انبهرت بهذه الدعوة زمنا.
ــ منذ أيام قابلت، أحد أساتذتنا الذين كانوا يغسلون أدمغتنا من آثار التلوث الدينى الذى محا إيماننا أطفالا، سألته بعد غياب عقدين، سألته عن موقفه الآن من حكاية أن الدين مخدر، وفهمت منه أنه تراجع عنها، لكننى لم أستطع أن أفهم تراجع إلى أين، أذكر أنه قال إن رجال الدين هم الذين يسرقون وعى الشعوب لصالح أسيادهم، أو شئ كهذا.
ــ عنده حق، يبدو أن الدين الذى يسوّقونه أصبح نفيا للإيمان
ــ هه؟
ــ تكاد تكون مهمتنا الأولى هى أن نمنع ذلك، لا أكثر ولا أقل..
ــ مهمتنا؟ مهمة من؟ ..
ــ فهمت منك أن محاولة إحياء اللغة فى حضور حى، هى شئ من هذا القبيل.
هاجت عليه المشاعر الخطرة من جديد: يختلط الجنس بالإيمان باللحم باللغة بالصلاة بالدم حتى الامتلاء فالذروة، يا دى الليلة السودا، واحدة واحدة يا سيدتى.
لم يجرؤ أن يسألها، وما هو الحضور الحى حتى لا يجد نفسه بين أحضانها؟ فقال:
ــ على خيرة الله.
هم بالوقوف لكنه تراجع بحسم، وقد بدأت حالته "العادية" نوعا تعود إليه لتثبت أقدامه، فتمكن مقعدته من الجلسة، قال لها:
ــ والأستاذ أمين؟
يبدو أنها فوجئت بتوقيت السؤال، لكنها ربما كانت تنتظر ذات السؤال وتستعد له، ربما قدرت أنه سوف يطرح هذا السؤال فى وقت مبكر فى الحوار، وليس فى هذا التوقيت، هذا هو ما أدهشها، أما الإجابة فبدت جاهزة من قبل، لكنها مهدت لها بسؤاله:

ــ ما له؟
ــ أين هو من كل ذلك؟
ــ هو فى معرض السيارات، وهو مشغول بالاستعداد لمشروع ضخم لتجميع نوع كورى جديد من السيارات، يقول إنه سيفاجئ به السوق، ويكتسح.
ــ ألا ترين أن هذا الموقف هو...، يعنى...يمكن أن يكون...، قصدى، ضد، ليس تماما، لكن، ما هو أيضا... أساسا، أليس هو والد الأولاد الذين نحاول أن نحافظ عليهم كما خلقهم الله؟ أليس كذلك؟
ــ مالك يا جلال، طبعا هو والدهم، لملم نفسك بعض الشئ..،هل تشك فى هذا؟
ضحكت ثم أكملت:
ــ ولكن مالك تناثرت هكذا ياجلال ، أعنى كلامك، لا تؤاخذنى كنت أتابعك بصعوبة.
قالت ذلك ضاحكة ــ أيضا ــ ضحكتها هذه فيها طيبة عذبة، وكأنها....، كأنها ماذا، ليس يدرى.
ــ أليس من المناسب، بل لعله من اللازم أن نشركه فى الأمر، يعنى؟
ــ ما هو مشترك.
ــ أقصد أن يوافق على التفاصيل.
ــ وهل نجحنا نحن فى تحديد التفاصيل حتى نطلب منه أن يوافق عليها، ثم إنه مادام يدفع أتعابك فهو موافق.
ــ أعرف أنك لا تقصدين ذلك تماما، وأنا جاد فى معرفة حجم مشاركته لنا.
ــ هو يشاركنا بقدر ما لا يعترض على ما نفعل.
كادت حواجبه تلعب منه رغما عنه، لكنه قال منضبطا:
"والله فكرة".
لم يكن متأكدا إن كان قد قالها بصوت مرتفع، أم همس بها لنفسه.
ــ 6 ــ
كاد يطلب منها أن يجلس فى المقعد الخلفى، أو أن يستقل تاكسيا بحجة أن عنده ميعادا فى الاتجاه الآخر، وأيضا هو تمنى فى ذات اللحظة أن تختفى هذه المرأة من حياته الآن، وإلى الأبد، حتى لو اضطره الأمر آن يتنازل عن مشروعه، لكنه استسلم تماما وهو يلقى بنفسه فى المقعد بجوارها، جميع عضلاته سائبة تغلى فى صبر متحفز، والمصيبة أنه كان على يقين من أنها تدرك بعض ما به، أو كل ما به، بل إنه قد خطر بباله أنها تدركه أكثر مما يدركه هو، كيف استطاعت أن تعريه هكذا؟ بإيمانها؟ فلماذا الجنس؟ أى جنس؟ ومن الذى جاء الآن بسيرة الجنس؟ يكاد لا يستطيع ــ كما سبق له مثل ذلك أو قريب من ذلك ــ أن يفصل الجنس عن الإيمان، عن المعنى عن الامتلاء، عن الصلاة. كل ما يقدر عليه هو أن يبدل مواضع الكلمات: الإيمان، المعنى الصلاة، الامتلاء،الجنس، قال ماذا؟ أزاح الجنس ليصبح فى ذيل القائمة، لكن القائمة ليس لها رأس وذيل، هى كتلة متداخلة، تمد يدك لتمسك بإحدى مفرداتها فلا تعرف. لا تستطيع إلا أن تحتويها كلها معا بكل مفرداتها بداية ولا نهاية، أين النجاة؟
لم تتكلم وهى تواصل القيادة وكأنها تركته قاصدة أن ينجى نفسه بنفسه.
سمعها دون أن تنطق فقال وكأنه يرد:
ــ سبحان المنجى.
استسلمت فى أمومة، وحتى أمومتها بدت له كأحد تجليات الكتلة الحيوية المتعددة المتداخلة الغامرة، قالت:
ــ مم، من ماذا؟
رد عمه سليمان، نيابة عنه، فأنقذه: "من المهالك".
تذكر فجأة لقاء محمود الأخير، لماذا لم يحدثها عن مشروع محمود، مع أنهم شركاء هم الثلاثة فى شئ

ما، قرر أن يفاتحها الآن، فى السيارة، وكأنه يستغيث باستحضار محمود عبد السلام ليقف بينهما ويحول دون زحفه إليها، فيها، بها، فتشبث بالمقعد وربط الحزام على الرغم من بطء سرعة السيارة.

ــ أريد أن أحدثك عن صديق يمكن أن يساعدنا.

كادت تعتذر فالوقت تأخر، لكنها بدلا من أن تفعل، أدارت السيارة إلى الاتجاه المعاكس.

لم يفهم سر الالتفاف، وكاد يصيح:

– إلى أين؟

ــ لا عليك، إحك، خذ راحتك أريد أن أسمعك أكثر.

ــ لا.. لا.. ليست حكاية، لكن موقفه، موقف صديقى محمود هذا قد يفيدنا، يعنى، ربما قد يفيد الأولاد.

ــ كل شئ، يمكن أن يفيد، حسب موقفنا منه.

شرح لها أنه ليس صديقا تماما، وأنه كان نسيبه، كان شقيق زوجته، التى لم تعد زوجته، وأنه ضابط سابق، أصبح سابقا حديثا جدا، وكيف أنه استقال، يقول إنه استقال من أجل الأولاد، وكيف أنه قد عرض عليه أن يقوم بذات المهمة لأولاده بعد أن يهاجروا.

ــ يهاجرون؟ هل ستقوم بمهمتك هذه، فى المهجر؟ هل سيرسل لك طائرة خاصة فى ميعاد الدروس، أم ماذا؟ أين ذهبت يا جلال، نحن لم نشرب شيئا.

ــ يهاجرون إلى جرزة.

ــ جرزاااا؟ ؟ لم أسمع عنها، هل هى فى كندا أم فى نيوزيلندا؟

رد بسرعة:

ــ جرزة، وليست جرزاااا، جرزة – فى محافظة بنى سويف، بلد صغير بالقرب من هرم ميدوم، هل سمعت عن هرم ميدوم؟

ــ أظن، لكنك قلت يهاجرون.

ــ نعم، هو يعتبرها هجرة، شئ أشبه بما فعلتـــه أنت حين هاجرت من ألمانيا إلى مصر، أو إلى ما كنت تحسبينه مصر، هو ــ أيضا ــ يحسب أن جـــــرزة هى أرض الميعاد مثل أولاد الـــ... خاف أن يكمل، فهو لا يعرف موقفها من السامية.

"سامية" تعنى ماذا؟"

" سامية يا حمار، بشد الهمزة"

"الله يخرب بيوتهم."

راح يكمل آملا ألا تكون قد سمعت حواره الداخلى:

ــ محمود: ترك له أبوه بضعة أفدنة نصف نصف، يريد أن يزرعها بنفسه هو وأولاده، يتصور بذلك أنه ينقذ أولاده من النظام القاهرى الجديد، ويريد منى أن أساعده فى تعليمهم، بحيث يكونون هم، يعنى كما خلقهم الله، شيئا أشبه بما تقولين.

ــ ياه، إننا لسنا وحيدين.

ــ إننا: من؟

ــ أنت وأنا.

ــ أنا وأنت؟

ــ نعم.

لم يصدق، ولم يفسر، ولم يسمح لنفسه بالتمادى، فرجع هاربا إلى الكلام فى "المشروع" والشريك الجديد، وكأنه يجر القارب بحبل إلى الشاطئ برغم مساحة الطين الرخوة الممتدة.

ــ هه؟ هل لديكِ مانع أن نشركه معنا، أعنى أن نشرك أولاده فى الأمر؟ فى الدروس؟ مع أولادكم؟ يعنى.

ــ نشرك من؟ آه تقصده من يقل هذا، طبعا لا مانع، إذا أمكن ترتيب الأماكن والمواعيد، هل تبعد

جرزا هذه كثيرا عن القاهرة.

ـــ يعنى، أقل من ساعة.

ـــ لست متأكدة، على أية حال شوقتنى للتعرف على صديقك هذا، وعلى جرزة، الهجرة إلى جرزة – بنى سويف كما تقول!! فكرة..! فعلا فكرة.

ـــ بصراحة هى شطحة ليست فكرة، صاحبى هذا عاد من البوسنة مختلفا تماما، مر بخبرة هناك لا أعرف منها إلا ملامح يسيرة، عاد منها مختلفا.

ـــ...، هل كان فى البوسنة؟ أريد أن أتعرف عليه، لى أصدقاء بوسنيون من الذين هاجروا إلى ألمانيا أثناء الحرب، ما اسمه؟

ـــ محمود.

ـــ محمود؟

ـــ ماذا هل تعرفينه؟

ـــ لا.. طبعا.

ـــ تكررين اسمه كأنك تعرفينه.

ـــ ماذا جرى لك؟

ـــ أبدا.

سألته أين يسكن حتى تقوم بتوصيله بعد أن تأخر بهم الوقت أكثر، اعتذر وشكر فأصرَّت، وحين وصل إلى منزله تلكأ فى النزول، لكنه اندفع خارج العربة دون أن ينظر إليها، وهو يقول لها: "تفضلى"، كلمة مصرية عابرة فى مثل هذه المواقف. خاف أن يصافحها قبل أن ينزل.

لف حول العربة من الخلف وهو يشير بيده أن "مع السلامة" ووجهه إلى الناحية الأخرى.

لاحظ أن باب السائق يفتح بهدوء، وهى تهم بالنزول، تردد وأعاد: "تفضلى".

وتفضَّلتْ

إرتباط كامل النص:
www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD060818.pdf

*** *** ***

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com

شـــعـــار: انجـازات اربعـــة عشـــرة عامـــا مـــن الكـــدح "

(التأسيس العام 2000 الاطلاق على الويب العام 2003)

الكتـــــــــاب السنـــــــــوي الخامـــــس

تحميل الكتاب

- التحميل من موقع " شبكة العلوم النفسية العربية"
http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf

اشتراكـــــــــات الدعـــــــم في اصدارات الشبكة
http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=36&controller=category&id_lang=3

خدمات الاعلان بالمتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=39&controller=category&id_lang=3